حكايات لم تروها جدتي

أحمد سلطان

تحكي لي جدتي حكايات بعضها يصدق، وبعضها لا.. تروي خرافات، وأساطير، ممزوجة ببعض العبر والمواعظ وذلك لا يثيرني لكنها مسلية، تكسر بعض الأوقات المملة، مملة بسبب أصدقاء عابثين، سطحيين، وحبيبة لا تهوى إلا ألعاب البنات وأكل الشوكولاتة، لا تعرف اهتماماتي أو احتياجاتي، تحكي لي جدتي حكايات سمعتها في صباها، وشبابها، وذلك لا يعنيني، تسألني بعد كل مرة: أأعجبتك الحكاية؟

نعم يا جدتي.

أصدقائي يحبون البحر، رغم أن هناك رحل أغلاهم وأعزهم على قلبي وقلب بلدتي، لكنهم ما زالوا يحبونه، نادوني للذهاب معهم، للرحيل معه، لكني اعتذرت والحجه أن جدتي تناديني. ذهبوا، وعادوا بدونه باكين، أما هو كان مبتسمًا حين ودعني في رحيله معهم، مر يوم والآخر وعاودوا الذهاب إلى البحر. بدأت الحكاية بواحد يذهب في

الخفاء، ثم ازدادوا واحدًا بعد واحد إلى أن اكتمل العدد إلا واحدًا. منذ ذلك اليوم لم أعد أصاحب أحدًا خوفًا ألا يعود معهم، تنظر لي جدتي: أأعجبتك الحكاية؟

أكسر الحزن بابتسامه: نعم يا جدتي.

حبيبتي دائمًا تعشق اجتماع البنات حولها، يلعبون ألعابهم المكنة: (فتحي يا وردة، غمضي يا وردة – ستيتة – حنجليكة ونط الحبل)، كان الخبثاء من الأولاد ينتظرونهن حين يقفزن من أعلى الحبل، هذا النهد كبير أما هذا صغير، تلك المؤخرة جذابة، وهذه تلفت فقط الأنظار، أما أنا لم أجد نفسي بين صديقاتها، أو بين أصدقائي، لم أجد نفسي معها، بما تبقى من مصروفي في اليوم أذهب لأشتري لها الشوكولاتة، تأخذها بعد عدة لحظات وهي تتفقد القطعة، تنظر إليّ مبتسمة، تشكرني وتختفي وسط غبار الأتربة المصنوعة بواسطة ألعاب صديقاتها، تشاركهن المرح. لم يكن فرحي في حسبانها، ما هي ألعابي؟ ما هي تفضيلاتي؟ تسكت جدتي واضعة يدها علي رأسي وتمسح عليها: أأعجبتك الحكاية؟

أرد عليها خجلًا: نعم يا جدتي.

جدتي لم تعد ترى الحياة كما هي، في صباها كانت جزءًا من الأحداث، في شبابها استطاعت أن تأخذ القرارات فأصبحت صانعة لها، أما في شيخوختها أصبحت شاهدة عليها، لا تملك إلا أن تبتسم في أوقات حزنها وفرحها، تندم أحيانًا، تفخر كثيرًا، تنظر لي واضعة يدها علي صدرها قائلة: لولاي ما كان هذا هنا.. ما كانت هذه هناك.

أبتسم لها: عظيمة أنتِ يا جدتي.

جدتي لم تعد ترى الحياة كما هي، لقد ضعف بصرها عندما امتهنت حياكة الملابس لأولاد الجيران، سعت لتلبية متطلبات الحياة وأهملت متطلباتها في علاج ضعف البصر، انشغلت بكيف يراها الآخرون ولم تهتم بكيف هي ستراهم.

جدتي لم تعد ترى الحياة كما هي، انشغال من جعلَتهم كل انشغالها عنها جعلها تشعر بسقم الحياة ومدى دناءتها، جدتي لم تحكِ أجمل وأروع قصصها، بل جعلت الأخرين يحكونها عنها.

دائما تفهمني، تعرف ما هي اهتماماتي، تحب أشيائي، تناديني.. تحكي عن أبطال يشبهونني، أسماؤهم كاسمي، حياتهم ليست كحياتي، بعد انتهاء كل حكاية تروها لي أنظر لصدق محبتي في عينيها وهي تقول: أأعجبتك الحكاية؟

أهرب من نظراتها لصدق مشاعري إلى أصدقاء عابثين سطحيينن، وحبيبة لا تهوى إلا ألعاب البنات وأكل الشوكولاتة، أتذكر حكايات لم تروها مازلت أسمعها عنها، أبتسم لها قائلًا: نعم أعجبتني حكاياتك يا جدتي.